

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٣٥٩ : خ ١ - تفسير سورة العلق (القراءة تعني طلب العلم) ، خ ٢ -
أدنى الأرض.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩١-٠٨-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وما توفيقي
ولا اعتصامي ولا توكلّي إلا على الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً
لرُبوبيّته ، وإرغاماً لمن جحد به وكفر ، وأشهد أن سيّدنا محمّداً صلى الله عليه وسلّم رسول الله
سيّد الخلق والبشر ما اتّصلت عين بنظر ، أو سمعت أذن بخبر . اللهم صلّ وسلّم وبارك على
سيّدنا محمّد ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى ذريّته ومن والاه ، ومن تبعه إلى يوم الدين ، اللهم
ارحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فإنك علينا قادر ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على
كلّ شيء قدير ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحقّ حقاً وارزقنا
اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،
وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

القراءة رمزُ التعلّم والعمل الصالح أساس السعادة في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الأكارم ؛ الآيات الأولى التي نزل بها جبريل الأمين على قلب سيّد المرسلين ، قوله
تعالى :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

[سورة العلق : ١-٥]

أيها الأخوة الأكارم ؛ في الإسلام نظرةٌ شاملةٌ إلى الحياة ، في الإسلام نظرةٌ شاملةٌ إلى الكون ،
ونظرةٌ شاملةٌ إلى الحياة ، ونظرةٌ شاملةٌ إلى حقيقة الإنسان ، في هذه الصورة تتضح نظرة
الإسلام إلى الإنسان ، نظرة الإسلام إلى الإنسان في علاقته برّبّه ، وفي علاقة ربّه به ، إنّه في
الأصل خطابٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، وبالتبعية لكلّ إنسان يفهم الخطاب من بعده ، أول
آيات نزل بها جبريل الأمين على قلب سيّد المرسلين .

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ في هذه الآيات دلالةٌ كبرى على أن قيمة الإنسان في قدرته على التعلّم ،
فالجمادات تشغلُ حيزاً مادياً ، والنباتات تشغلُ حيزاً مادياً وتتمو ، والحيوانات تشغلُ حيزاً مادياً
وتتمو وتتحرك ، والإنسان يشغلُ حيزاً مادياً وينمو ويتحرك ويفكر ، أكرم الله الإنسان بهذه القدرة
على التعلّم ، وهذه القدرة على الإدراك ، بهذه القوة الإدراكية التي ميّزه الله بها على سائر

المخلوقات . قوله تعالى وأقرأ بعيداً عن ملايسات الآية ، وعن أسباب نزولها ، وعن أنها خطابٌ في الأصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، في عموم الآيات القراءة رمزُ التعلّم ، أو القراءة رمزُ العلم ، والعلم أساس العمل ، والعمل الصالح أساس السعادة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

[سورة فصلت : ٣٠]

وقال تعالى :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[سورة فصلت : ٣٣]

وقال تعالى :

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[سورة النحل : ٣٢]

القراءة رمزُ التعلّم ، والعمل أساس العمل الصالح ، والعمل الصالح أساس السعادة في الدنيا والآخرة .

اعتماد القرآن قيمة العلم والعمل كقيمة أصيلة حقيقية للتفاضل بين الناس :

أيها الأخوة الأكارم ؛ إما أن تقرأ في كتاب ، وإما أن تقرأ الكتاب ، وإما أن تعني القراءة مطلق التعلّم ، تقول : قرأتُ في وجه فلان علامات الغضب ؛ أي تعرّفتُ إلى حالاته النفسية من خلال علامات وجهه ، فانه سبحانه وتعالى أراد من الإنسان أن يتعلّم ليسعد بعلمه ، ولكن وقفة قصيرة ، الحظوظ التي تواضع الناس عليها ، أو تفاوتت الناس من خلالها ، أو وضعها الناس مقياساً للتفاوت بينهم ، كحظّ المال ، وحظّ الجمال ، وحظّ القوة ، وحظّ الذكاء ، كل هذه الحظوظ لم ترد في كتاب الله تعالى كأسس صحيحة للتفاضل بين الناس ، ولكن قيمة العلم والعمل وحدها اعتمدها القرآن كقيمة أصيلة حقيقية للتفاضل بين الناس ، قال تعالى :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة الزمر: ٩]

وقال تعالى :

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة الأنعام : ١٣٢]

القراءة بمعناها الواسع :

فيا أيها الأخوة الأكارم ؛ القراءة بِمَعْنَاهَا الواسع الشامل تعني أن تَطْلُبَ العِلْمَ ؛ إما مُشَافِهَةً ، أو مُدَارِسَةً ، لا بدّ من أن تعلمَ ؛ لأنّ أصلَ الدِّين معرفة الله عز وجل ، ولأنّ أصلَ العمل الذي ينقذُك من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة هو ما بُنِيَ على عِلْمٍ صحيح .

أيها الأخوة الأكارم ؛ كما قلتُ قبل قليل ، في هذه الآيات التي نزل بها جبريل الأمين على قلب سيّد المرسلين نظرة الإسلام إلى حقيقة الإنسان ، إنّ الناس في بعض أحوالهم يعيشون ليأكلوا ، وبعضهم يأكلون ليعيشوا ، ولكنّ المؤمن يعيش ليعرف الله عز وجل ، ليعرف أمره ونهيّه ، ليستقيم على أمره ، ليتقرّب إليه بالأعمال الصالحة فيسعدُ في الدنيا وفي الآخرة .

أيها الأخوة الأكارم ؛ أما قول الله عز وجل :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

[سورة العلق: ١]

فالقراءة ليست مطلقةً ، وليس كلّ علمٍ نافعًا ، وليس كلّ نشاطٍ فكريٍّ مُجديًا ، وليس كلّ اطلاعٍ مغنيًا ، وليس كلّ طلبٍ علمٍ يُنجي صاحبه يوم القيامة ، هذه الطاقة التي أودعها الله في الإنسان يجب أن تُوجّه في المسار الصحيح ، يجب أن تُوجّه وفق الهدف القويم، يجب أن تنطلق من البحث عن الحقيقة الكبرى ، لذلك جاء طلب العلم مُقيّدًا ؛ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ، وإذا ورد في القرآن مثل هذه الآيات ؛ باسمِ رَبِّكَ فهي تعني أشياء كثيرة ، أي اِقْرَأْ منطلقًا من التعرف إلى ربك ، ولتكن قراءتك ملابسةً في كلّ جزئياتها في معرفة الله عز وجل ، وليكن الهدف الكبير من كلّ نشاطٍ علميٍّ أن تصل إلى الله تعالى .

أيها الأخوة الأكارم ؛ مَنْ عَرَفَ الله عَرَفَ كلّ شيء ، ومن فاتته معرفة الله فاتته كلّ شيء ، مَنْ وَجَدَ الله وَجَدَ كلّ شيء ، ومن فاتته أن يصل إلى الله فاتته كلّ شيء ، اِقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ .

الرب يتولى أمر الإنسان و يربي عقله :

أيها الأخوة الأكارم ؛ الربّ هو الذي يتولى أمر الإنسان ، هو الذي يربي جسمه، هو الذي يربي عقله ، هو الذي يربي نفسه ، هو الذي يُعِدّه لمعاده ، هو الذي يصحّح له مساره، هو الذي يوقفه عند حدّه أحيانًا ، هو الذي يُشجّعهُ ، هو الذي يُقرّعه ، الربّ أيها الأخوة أقربُ أسماء الله تعالى إلى الإنسان ، هو الذي يتولى أمره ، ولا أدلّ على ذلك من أنّ الإنسان في أصله نطفة لا تُرى بالعين المجردة ، نطفة من ثلاثمئة مليون نطفة ، نطفة تفتحم البويضة لتلقحها ، وتنقسم البويضة إلى عشرة آلاف قسمٍ من دون أن يزيد حجمها ، وهي في الأنبوب الذي يصل بها إلى الرحم ، وفي الرحم كيف تنغرس هذه البويضة المُلقحة ، وكيف تمتد لها أيدي تعلق بها على جدار الرحم ، وكيف يمدّها الرحم بالآلاف الأوعية التي تُعطيها الغذاء الكافي، وكيف تنتقل من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلّقة وغير مخلّقة إلى عظام ، إلى لحمٍ يكسو العظام ، هذا الإله العظيم ، وهذا الربّ الكريم الذي تولى تربيّة هذه النطفة الضعيفة التي لا تُرى بالعين ، إلى أن تُصبح في تسعة أشهر

وعشرة أيام مخلوقاً له جهازٌ هضمي ، وله عضلاتٌ متنوعةٌ أنواعاً كثيرة ، عضلاتٌ مخططة ، وعضلاتٌ مُلساء ، وعضلة القلب وحدها تأخذ بالألباب ، فيه قلبٌ يضخُّ بِعَضَلَاتِهِ القويّة ، ودسّاماته المحكّمة ، وأوعِيَتِهِ المرنة ، وفيه جهازٌ تنفّسي يُصَفّي الدّم في كلِّ حين ، وفي جهازٍ هضمي ، وجهازٍ عصبي ، وجهازٌ تصفّيةٌ للبول ، من نُطفةٍ مخلّقة وغير مخلّقة تصبُحُ إنساناً سوياً تحارُّ في بُنيته العُقول ، تحارُّ في دقّة تركيبه الأدمغة ، تحارُّ في أداء وظائفه أكبرُ عُقول البشر .

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ هذا هو المُربّي ؛ الذي ربّك نُطفةٌ حتى صرّت إنساناً سوياً ، كما قلتُ لكم من قبل : إنّ هذه النُطفة عليها شريط المورثات أو شريط معلومات ، تزيد معلوماته عن خمسة آلاف مليون معلومة ، وخمسة آلاف مليون معلومة على البويضة ، قال تعالى :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

[سورة الإنسان : ٢]

النشاط العقلي الذي أودعه الله في الإنسان أعظم ما في الكون :

أيها الأخوة الأكارم ؛ اقرأ ، تعلم ، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظنَّ أنّه قد علم فقد جهل ، والعلم لا يُعطيك بعضه إلا إذا أعطيتَهُ كَلِّكَ ، فإذا أعطيتَهُ بعضك لم يُعْطِكَ شيئاً ، وتبارك الذي قسمَ العقل بين عباده أشتاتاً ، إنّ الرجلين ليستوي عملهما وبرّهما وصومهما، وصلاتهما ، ويختلفان في العقل كالذرة جنب أحد ، وما قسمَ الله لعباده نصيباً أوفرَ من العقل واليقين ، لا بدّ من طلب العلم ، فإذا استغنى الإنسان عن العلم هبط إلى مستوى البهيمة ، إذا أصبح الإنسانُ فما يأكل ، ومعدّة تهضم ، وعضلاتٍ تتحرّك ، ولذاتٍ تُروى ، فقد هبطَ بمُستواه إلى مستوى الحيوانية، اقرأ أيها الإنسان ، وكما قلتُ قبل قليل بعيداً عن أنّ أصل هذه الآيات خطابٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام في تلقّيه الوحي عن ربّه ، وفي إلقائه على الناس .

أيها الأخوة المؤمنون ؛ ولكنّ هذه القوّة الإدراكية ، وهذا النشاط العقلي ، وهذا الفكر الذي أودعه الله في الإنسان الذي في رأي بعض العلماء أعظم ما في الكون ، هذا الدماغ المؤلف من مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تُعرف وظيفتها بعد ، ومن أربعة عشر مليار خلية قشرية هي موطن الذكاء والمحكمة والتصور والتخيّل والتذكّر ، وكلّ النشاطات العقلية التي تروّن أمام أعينكم ثمرات العُقول ، بعيداً عن أنّ هذه المخترعات نافعة أو ضارة ، إنّ هذه الطائرة التي تطير هي من ثمرات العُقول التي أودعها الله في الإنسان ، إنّ هذه الاتّصالات التي يعجزُ عن إدراك بُنيته الإنسان هي من ثمرات العُقول ، حتى لو اطلّعت على آلة بالغة التعقيد يجبُ أن تُسبح الله عز وجل على أنّ وهبَ الإنسان ذلك الفكر التي كانت هذه الآلة المعقّدة ثمرة من ثمراته ، فهذه البهائم أمام أعيننا ، هل استطاعت أن تفعل شيئاً ؟ أن ترقى بمُستوى حياتها ؟ أن تخترع مركبة

فضائية؟ أن تبتدع جهاز اتصال سريع؟ إن هذه الآلات المعقدة بعيداً عن تقييمها أهي حق أم باطل، ولكن هذه الآلات إنما هي ثمرة من ثمرات العقول، فقله تعالى:

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

[سورة العلق: ١]

ثمرات العقول منوعة على الإنسان اختيار أفضلها:

أيها الأخوة الكرام؛ يجب أن يكون هذا النشاط العقلي، هذا العلم الذي تميّز الإنسان به يجب أن يُفيد بمعرفة الله عز وجل، أن ينطلق من معرفة الله تعالى، وأن ينتهي إلى رضوان الله، ومن هنا كان دعاء النبي عليه الصلاة والسلام فقد روينا في صحيح مسلم، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال:

((لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهمل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها"))

[مسلم عن زيد بن أرقم]

أيها الأخوة الأكارم؛ دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد فرأى رجلاً تحلق الناس حوله، وهو يعلم من هو، ولكن سأل: من هذا؟ قالوا: هو نسابة، فقال عليه الصلاة والسلام متجاهلاً: وما نسابة؟ قالوا: يعرف أنساب العرب، فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك علم لا ينفع من تعلمه، ولا يضر من جهل به، هذا علم لا ينفع، ولا يضر، وهناك علم ربما أودى بالإنسان إلى الهلاك، فتقبيد القراءة باسم ربك، معنى ذلك يجب أن تختار ما تقرأ، يجب أن تختار من تستمع منه، يجب أن تختار لهذا العقل الغذاء الصحيح، لا الغذاء الفاسد، فكما أن الأصدقاء منوعون، كذلك ثمرات العقول منوعة، ربما قرأت كتاباً فهلكت وأهلكت، وربما قرأت كتاباً فسعدت وأسعدت، وما شأن من يقرأ الكتاب إلا كمن يقرأ بطون الأنعام، فقد يقع على الكرش الذي فيه فرس، وقد يقع على الثدي الذي فيه حليب سائغ.

ما من جهة في الكون أكثر إكراماً للإنسان من خالقه:

أيها الأخوة الأكارم؛ قال تعالى:

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾

[سورة العلق: ١-٢]

لا أدل على تربيته جل جلاله من تطوير الإنسان من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، إلى عظم، إلى لحم، إلى كائن سوي. الله سبحانه وتعالى وصف نفسه في هذه الآيات

القليلة بأنه الخالق ، وبأنه الأكرم ، خلق الإنسان وكرّمه ، وأكرم اسم تفضيل ، أي ما من جهة في الكون أكثر إكراماً لك أيها الإنسان من خالقك ، ما من جهة في الكون أكثر إكراماً لك أيها الإنسان من ربّيك ، قال تعالى :

﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾

[سورة العلق : ٣-٤]

البيان بيّان ؛ بيانٍ نطقي وبيانٍ خطّي :

أيها الأخوة الأكارم ؛ حينما قال الله عز وجل في مطلع سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

[سورة الرحمن : ١-٤]

قال بعض المفسرين : البيان بيّان ؛ بيانٍ نطقي ، وبيانٍ خطّي ، فقد تستمعُ مشافهةً من إنسان ، وقد تقرأ كتاباً لإنسان ، فالاستماعُ مُشافهةً هو البيان النطقي ، والقراءة هي البيان الخطّي ، والله سبحانه وتعالى في كلا الحالين إمتنّ على عياده بنعمة البيان ، البيان الخطّي ، قال بعض العلماء : في البيان الخطّي ينقلُ تراث الأمم عبر الأجيال ، كلُّ التراث الذي جاء به العلماء إنما ينتقلُ من جيلٍ إلى جيلٍ عبر البيان الخطّي ، به تخلد العلوم ، به ترقى العلوم ، لأن كل إنسان يبني معرفته على معرفة الأسبقين ، وبهذا يرقى البناء ، لو لم يكن هناك بيانٍ خطّي لاندُرست العلوم ، ولبدأ كل إنسان علمه من الصفر ، لا ترقى البشرية إلا بالنطق ، والبيان الخطّي ، وبه تثبت الحقوق ، كل الوثائق ؛ وثنائك التملك ، وثنائك الشراكة ، وثنائك البيع ، وثنائك العقود ، كلّها بالبيان الخطّي ، وقد سُمّي القرآن قرآناً لأنه يُقرأ ، وسُمّي القرآن كتاباً لأنه كتب به . وبه تنقلُ الوصايا ، وتُحفظ الشهادات ، وتُضبط الحسابات ، وتُقَيّد المعاملات ، وبه تنقلُ أخبار الماضين للاحقين ليتعظوا ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار الأمم بعضها عن بعض ، ولضاعت الموعظة ، ولاندُرست السنن ، وتخبّطت الأحكام ، ولم يعرف الخلفُ مذاهب السلف .

أيها الأخوة الأكارم ؛ فضل الله الإنسان بهذا البيان بيان النطق ، وبيان الكتابة ، وفي الآية الكريمة :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾

[سورة العلق : ١-٤]

الذي علّم بالقلم إشارة إلى البيان الخطّي ، بل إن علماء العقيدة قالوا : لا بدّ من أن تعرف الله عن طريق التّحقّق والتفكير الذاتي ، فهذا الكون يدلُّك على الله ، ولا يمكن أن تعرف أمره ونهيه إلا عن طريق الأمر الذي تستمعُ تفسيره ، أو تقرأ أحكامه ، فالتعليم الشّفهي ، أو التأمل في الكون طريقٌ لمعرفة الله عز وجل ، وقراءة أمر الله عز وجل هو إشارة إلى أنّك بالشرع تبعده ، وبالكون تعرفه .

سورة اقرأ إشارة إلى عظمة خلق الله و عظيم إكرامه :

أيها الأخوة الأكارم ؛ قال تعالى :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾

[سورة العلق : ١-٣]

قال تعالى :

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾

[سورة الرحمن : ٧٨]

بِقَدْرٍ مَا هُوَ عَظِيمٌ بِقَدْرٍ مَا هُوَ مُكْرَمٌ ، بِقَدْرٍ مَا تَعْظُمُهُ بِقَدْرٍ مَا تَحِبُّهُ ، قال تعالى :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾

[سورة العلق : ١-٣]

في الآيات الأولى إشارة إلى عظمة خلق الله عز وجل ، وفي الآيات الثانية إشارة إلى عظيم إكرامه جلّ جلاله ، قال تعالى :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

[سورة العلق : ١-٥]

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ ليس العارُ أن تكون جاهلاً ، ولكن العارُ أن تبقى جاهلاً ، هذا الذي يعزفُ عن مجالس العلم ، يعزفُ عن معرفة أمر الله ، ويعزفُ عن معرفة سنة رسول الله ، ويعزفُ عن معرفة أفعال النبي من خلال سيرته المطهرة ، هذا الذي ينشغلُ بِدُنْيَاهُ عن طلب العلم إنسانٌ عاشَ على هامش الحياة ، ولم يفقه من حقيقة الدنيا شيئاً ، ولم يعرف حقيقة الكون ، ولا حقيقة الدنيا ، ولا حقيقة وجوده .

من استغنى عن معرفة الله طغى و بغى و ملأ الأرض جوراً و ظلماً :

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ مرّةً ثانيةً ، وثالثةً ، ورابعةً ، أطلُّبُوا العلم ، قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الزمر : ٩]

العلم أساس العمل ، والعمل الصالح أساس سعادة الدنيا والآخرة ، أما هذا الإنسان الذي بقيَ جاهلاً ، وهذا الإنسان الذي لم يطلب العلم ، هذا الإنسان الذي رضيَ بِوُجُودِهِ المادي ، هذا الإنسان الذي رضيَ بالحياة الدنيا ، واطمأن لها ، واستغنى عن معرفة الله ، ما شأنه ؟ وما حقيقته ؟ ما جوهره ؟ قال تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ * أَن رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾

[سورة العلق : ٦-٧]

إذا أتى الله إنساناً مالاً ، أو آتاهُ صِحَّةً ، أو آتاهُ قوَّةً ، أو وفرَّ له كلَّ حاجاته كأنَّه يستغني ، ويَطْغى ، والطُّغيانُ مجاوزةُ الحدِّ ، إن لم تتعلَّم فلا بدَّ من أن تطغى ، هنا الدقَّةُ ، ما الخطرُ الذي ينتظر الجاهل ؟ أنه إذا استغنى طغى وبغى ، ونسيَ المبتدىَ والمنتهى ، ما الخطرُ الكبير الذي ينتظر الجاهل ؟ أنه إذا طغى دَفَعَ ثَمَنَ طُغيانِهِ باهظاً ، أنه إذا طغى لم يتعلَّم ، استغنى فطغى فخلدَ في النار إلى بدِّ الأبدِين ، كلا أداة ردِّع ، أيها الإنسان لا تكن جاهلاً ، لا تَعِشْ على هامش الحياة ، لا ترض أن تعيشَ حياةً بهيميَّةً ، كلا إنَّ الإنسانَ الجاهل الذي استتكَفَ أن يتعلَّم ، استتكَفَ أن يعرفَ ربَّه ، استتكَفَ أن يعرفَ منهجَ ربِّه ، أراد أن يكون إنساناً على شكل بهيمة ، يأكل ويشرب ويتمتَّع ، ويأكل كما تأكل الأنعام ، هذا الإنسان الذي استغنى عن طلب العلم من شأنِهِ الضروري أنه إذا استغنى طغى ، قال تعالى :

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا طَغَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتغْنَى﴾

[سورة العلق : ٦-٧]

أن رأى نفسه استغنى عن الله يطغى ، ويملاً الأرض ظلماً وجوراً .

خطورة استتكَاف طلب العلم :

أيها الأخوة الأكارم ؛ أراد الله عز وجل أن يُبينَ خطورة استتكَاف طلب العلم ، قال تعالى :

﴿إِنِّ إِلِي رَبِّكَ الرَّجْعِي﴾

[سورة العلق : ٨]

لكنَّه سيَعُود إلى الله عز وجل ، ويُحاسِبُهُ عن أعماله كلِّها ، يُحاسِبُهُ عن طُغيانِهِ الذي كان بعدَ استغنائِهِ ، وكان استغناؤُهُ بعد جهله ، جهَلَ فاستغنى فطغى فَعُوقِبَ ، قال تعالى :

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا طَغَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتغْنَى * إِنِّ إِلِي رَبِّكَ الرَّجْعِي﴾

[سورة العلق : ٦-٨]

يا أيها الإنسان إليك الدليل القطعي ، قال تعالى :

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾

[سورة العلق : ٩-١٠]

دَعَّ كلامَهُ ، دَعَّ فُلُسْفَتَهُ ، دَعَّ منطلقاته الفكريَّة ، دَعَّ ما يُزخرفُ من قولٍ لك ، دَعَّ كلَّ هذا ، وانظُر إلى عمله ، انظُر إلى انحرافه ، وانظر إلى دناءته ، انظر إلى إخلافه وعدَّه ، إلى قسوة قلبه ، إلى أنانيَّتِهِ ، قال تعالى :

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾

[سورة العلق : ٩-١٠]

ماذا يضرُّه لو كان على الهدى أو أمرَ بالتقوى ؟ هو ينفَعُهُ لو أنه كان على الهدى أو أمرَ بالتقوى ، لكان من سُعداء الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

[سورة العلق: ١١-١٣]

كذب ما جاء به الرسل ، وتولى عنهم ، والتكذيب صفة عقلية ، والتولي صفة نفسية ، قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾

[سورة العلق: ١٤]

هو في قبضة الله دائماً ، وفي علم الله دائماً ، وهو مكشوف لذات الله دائماً ، وسوف يدفع ثمن جهله ، وتقصيره ، وطغيانه باهظاً ، قال تعالى :

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾

[سورة العلق: ٩-١٤]

بل إنّ الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض لعلّة أن تعلم أنّ الله يعلم ، قال تعالى :
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

[سورة الطلاق: ١٢]

من لم ينته عن طغيانه و ظلمه يؤخذ من ناصيته أخذاً عنيماً :

ثم قال تعالى :

﴿كَلَّا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية﴾

[سورة العلق: ١٥]

كلاً لئن لم ينته هذا الإنسان عن طغيانه بسبب استغناؤه ، واستغناؤه كان بعض جهله ، قال تعالى:

﴿كَلَّا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية﴾

[سورة العلق: ١٥]

مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، هذا الإنسان الذي طغى وبغى ونسى المبتدى والمنتهى يؤخذ من ناصيته ، ومن مقدمة رأسه ، يؤخذ أخذاً عنيماً ، ويجرّ جرّاً قاسياً ، لأنّ هذه الناصية كانت ناصية كاذبة خاطئة ، قال تعالى :

﴿نَاصِيَةٌ كَازِبَةٌ خَاطِئَةٌ﴾

[سورة العلق: ١٦]

وفي هذه الساعة لا ينفعه ماله ، ولا أولاده ، ولا جماعته ، ولا من اعتمد عليهم في الدنيا ، قال تعالى :

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾

[سورة العلق: ١٧]

هؤلاء الذين كانوا يسمرون معه في ناديه ، قال تعالى :

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾

[سورة العلق : ١٧-١٩]

كَلَّا لَا تَطِعُهُ .

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

[سورة الكهف : ٢٨]

والأمر المعاكس قوله تعالى :

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[سورة لقمان : ١٥]

سورة اقرأ إشارة إلى حقيقة الإنسان و المهمة التي خلق من أجلها :

هذه السورة أيها الأخوة آياتها الأولى ؛ أول ما نزل به جبريل الأمين على قلب سيدنا محمد سيّد المرسلين ، وفيها إشارة إلى حقيقة الإنسان ، هو كائنٌ أودعَ اللهُ فيه قوة إدراكية، وقوة تعليمية ، قدرة على التعلّم ، فإذا أهملها ، فقد هبط إلى مستوى البهيمة ، وجهل نفسه ، وجهل المهمة التي من أجلها خلق .

أيها الأخوة الأكارم ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن تزن عليكم ، واعلموا أنّ ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

دلائل إعجاز الله عز وجل في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الأكارم ؛ في القرآن الكريم ، ومن دلائل إعجازه أنّه أنبأ عن المستقبل، وقد وقع ما أنبأ الله به ، فقال تعالى :

﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ

الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ﴾

[سورة الروم : ١-٤]

يعني من هذه الآية كلمة في أدنى الأرض ، ماذا يريد الله بها ؟ وأي مكان هو أدنى الأرض ؟ الأرض كرة ، والأرض بما أنها كرة فخطوطها متصلة ، لو أن لها حوافاً كالمكعب ، أي أدنى إلى حافة المكعب ، ولكن الكرة خطوطها متصلة ، ومستمرة ، وهي الشكل الهندسي الوحيد الذي إذا سرت بخط عليه امتد إلى ما لا نهاية ، وليس لهذا الشكل حواف ، وقد أشار القرآن الكريم في آيات أخرى إلى كروية الأرض حيث قال :

﴿وَالأَرْضَ مَدَنَاهَا﴾

[سورة الحجر : ١٩]

أي الخطوط على الأرض لا تنقطع ، ولا تقف عند حد ، بل إنها تتصل ، فلو اتجهت نحو الشمال نظرياً ، إلى أن وصلت إلى القطب ، وعُدت بعدها في نصف الكرة الآخر، تعود إلى النقطة التي بدأت منها ، هذا معنى قول الله تعالى :

﴿وَالأَرْضَ مَدَنَاهَا﴾

[سورة الحجر : ١٩]

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الأرض كرة ، ولكن ما معنى أدنى الأرض ؟ أدنى تعني شئئين ؛ تعني أنه الأسفل ، وتعني أنه الأقرب ، فإذا استبعدنا معنى الأقرب لكون الأرض كرة ، بقي المعنى هو الأسفل ، وقد أشارت كتب التاريخ ، وقد أجمع المفسرون على أن المعركة التي انتصر بها الروم على الفرس تحقيقاً لوعده الله عز وجل في بضع سنين كانت في الأغوار ، في أغوار فلسطين ، وحيث أن بعض علماء المسلمين اتجه إلى أكبر علماء الجيولوجيا في العالم الغربي ، وسأله هذا السؤال : أي مكان في الأرض هو أشدها انخفاضاً ؟ لو قلنا أي مكان على سطح الأرض بما فيها البحر ؟ لأجاب هذا العالم : إنه خليج مريانة ، أو إنه وادي مريانة في أعرق نقطة في قعر البحار ، هذه النقطة يزيد انخفاضها عن اثني عشر ألف متراً ، ولكن أدنى الأرض اليابسة تقع في أرض فلسطين ، فوقت نزول هذه الآية لم يكن بوسع الإنسان أن يمسح القارات الخمس ، وأن يعرف ارتفاع أعلى نقطة فيها ، وأدنى نقطة في انخفاضها ، ولكن القرآن أشار إلى أن الروم غلبت في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، وأدنى الأرض يعني أخفض نقطة في الأرض ، وقد توافقت كتب التاريخ مع قوله تعالى في أن أخفض نقطة في الأرض هي غور فلسطين .

في القرآن آيات كما قال الإمام علي كرم الله وجهه لم تُفسر بعد ، هذا مصداق قول الله عز وجل :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

[سورة فصلت: ٥٣]

أنه كتاب الله ، وأن خالق الكون يعرف أية نقطة في الأرض هي أخفض من غيرها ، بل إن هناك أية أخرى تؤدي بعض المعنى ، قال تعالى :

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

[سورة الحج : ٢٧]

لم يقل الله عز وجل : وعلى كل ضامر يأتين من كل فج بعيد ، لو أن الأرض مسطحة لكانت كلمة بعيد أنسب من كلمة عميق ، وبما أن الأرض كرة ، وأنك كلما ابتعدت عن سطح الأرض نزلت نحو الخط المنحني ، إذا إذا ابتعدت عن مكة لا بد من أن يسير الأرض على خطٍ منحني فيصيح هذا الفج عميق ، وهو أصح من أن يوصف من أنه بعيد ، قال تعالى :

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ

لَهُمْ﴾

[سورة الحج : ٢٧-٢٨]

الدعاء :

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحمد على ما قضيت ، نستغفرك اللهم ونتوب إليك ، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير ، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين ، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمّن سواك ، اللهم لا تؤمننا مكره ، ولا تهتك عنا سترك ، ولا تنسنا ذكرك ، يا رب العالمين ، اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء ، ومن شماتة العداء ، ومن السلب بعد العطاء ، يا أكرم الأكرمين ، نعوذ بك من الخوف إلا منك ، ومن الذل إلا لك ، ومن الفقر إلا إليك ، اللهم بفضلك ورحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيد ولا تهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين